التواجد الفنيقي في الجزائر (814-146 ق.م)

أولا/ أصل الفنيقيين:

تعتبر الجزيرة العربية المكان الأصلي للفنيقيين رحلوا عنها وهاجروا منها بسبب القحط والجفاف، واستقروا في أرض لبنان الحالية وفلسطين وأجزاء من أراضي سوريا، حيث صار يطلق عليها فينيقيا.

سموا بالفينقيين من قبل اليونانيين، نسبة إلى صناعة الأرجوان التي اشتهروا بها وهو اللون الأحمر الضارب إلى السمرة.

أما نسبهم فهم أمة سامية من أولاد كنعان بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام.

ثانيا/ تواجدهم في الجزائر:

تفوق الفينقيون في ميدان التجارة وهذا السبب جعلهم يصلون إلى سواحل شمال إفريقيا، حيث إنهم إتخذوا من قرطاجنة بتونس عاصمة لهم، ثم ليمتد تواجدهم على الساحل الجزائري في كل من: بجاية، شرشال، تنس، (هيبون) عنابة، جيجل ووهران، وظلت العلاقة بين الفينيقيين والسكان الأصليين علاقة ود دون عداء، في البداية ثم تغيرت وتفصيل ذلك نسرده عند التطرق إلى الوضع الاجتماعي والاقتصادي.

ثالثا/ الوضع الاجتماعي والاقتصادي:

كما ذكرنا آنفا فإن علاقة الفينيقيين بالبربر كانت علاقة ود دون عداء وقد تطورت هذه العلاقة لتصبح علاقات مصاهرة اختلطت فيها الدماء الكنعانية مع الدماء البربرية لتشكل مجتمعا جديدا سمي فيما بعد بالمجتمع اليونيقي (القرطاجي).

حيث أن الفينيقيين كانوا قوم تجارة مسالمون لم يريدوا التعدي على أراضي البربر، وفوق ذلك فقد كانوا يدفعون ضرائب مالية للبربر مقابل المساكن والمراكز التجارية التي أقاموها تعبيرا عن نواياهم الحسنة حول كونهم ليسوا محتلين، بل هم تجار جاءوا ليروجوا لتجارتهم ويبيعوا بضاعتهم، حيث أنهم اشتهروا بصناعة "الحديد والنحاس والمعادن الثمينة، وخاصة أنهم كانوا بارعين في صنع وتصنيع السفن وينتجون الملابس وأدوات التجميل العاجية وأنواع الآلات الزجاجية والفخار والخزف تمتاز بتنوع الأشكال والتماثيل الصغيرة

والعاج والحلي وصبغة الأنسجة وصناعة الأخشاب والنقش على الحجارة الكريمة والدباغة والصياغة والحياكة وأدوات الفلاحة... كانوا يصنعون الأسلحة الحربية كالسيوف والرمح"[1].

كما أنهم برعوا في الزراعة، فزرعوا القمح والشعير وخصصوا لها الأراضي الشاسعة، واهتموا بغرس الأشجار فاعتنوا بشجر التين والزيتون واللوز والرمان وغرسوا الكروم لاستخلاص الخمور.

وقد استمر الوضع على حاله منذ أن وطئت أقدامهم شمال إفريقيا إلى غاية بداية القرن الخامس قبل الميلاد، حيث أنه استجدت أمور أثارت حفيظة البربر فأضمروا لهم الحقد والبغضاء في البداية لتتطور فيما بعد إلى حرب وعصيان وأسباب ذلك نوجزه في النقاط التالية:

-"عملت قرطاجنة منذ القرن الخامس ق.م على تغيير سياستها الإفريقية وكان السبب في ذلك هو هزيمتها لأول مرة أمام الإغريق معركة هميرا سنة 480 ق.م، وقد انعكس ذلك على علاقتها مع المغاربة حيث حاولت بعد هذه الهزيمة أن تعيد النظر في سياستها التجارية ... وأن لا تعتمد على التجارة وحدها، بل لابد أن تعطي للزراعة مكانتها اللائقة وهنا يبدأ ما عرف في السياسة القرطاجنة (بالاتجاه الافريقي) أي التوسع على حساب أراضي السكان الأصليين بالقوة والغصب.

-التوقف عن دفع الضرائب للسكان الأصليين مقابل المستوطنات التي أقاموها، كما كانت تفعل من قبل.

-فرض الضرائب على البربر لتغطية مستلزمات الحروب.

-التجنيد الإجباري للبربر في حروبها في صقلية سواء كانت ضد اليونان، أو الرومان خاصة، وأن القرطاجيين لم يكن لهم جيشا خاصا بجنسهم بل كان مزيجا من البربر الأفارقة أو النوميديين.

رابعا/ الثقافة:

1- مدى تأثر الأمازيغ باللغة الفينيقية:

كانت اللغة الأمازيغية لا تتعدى العشرة أحرف، عرفت باسم التيفيناغ (كما ذكر سابقا) وباحتكاك الأمازيغ بالفينيقيين صار تعداد أحرفها ثلاثة وعشرون حرفا، إلا أن اللغة الأمازيغية عانقت أصالتها وأبت الانصهار والذوبان كليا في لغة جديدة عنها، لذلك فقد أخذت من الفينقية أحرفها وكلماتها وعمدت إلى

[1]- عمار عمور، الجزائر بوابة التاريخ، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2009، ص 22.

بربرتها، فكما تأثرت باللغة الفينيقية فقد أثرت فيها، وهذا الامتزاج والتزاوج بين اللغتين ولد لغة جديدة ألا وهي اللغة البونيقية.

وقد ظل الأمازيغ متأثرين باللغة البونيقية إلى غاية الفتح الإسلامي، كما أن تعلم الأمازيغ للغة البونيقية يعتبر بمثابة تمهيد خصب وحرث سهل مهد تعلم اللغة العربية التي ساعدت في نشر الدين الإسلامي، خاصة إذا علمنا مدى قرب اللغة الفينيقية من العربية لأن "الفنيقيين لغة سامية هي أخت العربية والعبرية لذلك كانت لفاضها بينهما للأصل الواحد، ولاختلاط الكنعنيين بالعبرانيين في الشام فتأثرت عربيتهم بالعبرانية"[1].

كما حرص عامتهم وخاصتهم، رعيتهم وملوكهم على التكلم باللغة البونيقية ومن أمثال ذلك ماسينيسا الذي تعلم اللغة البونيقية وأرسل ولده إلى قرطاج لتعلمها وينهل من علمها وثقافتها، أما عن عامة الناس فيقول (محمد الطمار): "فالبونيقية أصبحت لغة الأكثرية البربرية لا يجهلها المدنيون ولا البداة إلا ما كان من أولئك الذين كانوا يسكنون قمم الجبال البعيدين عن القرى والأسواق فبقوا متشبتين بلغة الأجداد"[2].

2- **الديانة**:

الديانة الفينيقية ديانة وثنية، فقد عبدوا الشمس والقمر والأحجار المنقوشة على شكل إنسان، ومن أشهر آلهتهم بعل عمون وتنيت بن بعل.

وقد كانوا يقيمون لهم الأعياد ويقدمون لهم القرابين بما جادت به أيديهم من حيوانات أو حتى من اولادهم، وهذا ما يثبت مدى تعلق الفنيقين بدينهم وإيمانهم بحياة أخرى بعد الموت، "حيث أنهم كانوا يضعون مع الميت في قبره المبني بالحجارة المزخرفة، جواهره وأوانيه وأدوات الزينة، كما كان لرجال الدين مكانة مرموقة في المجتمع ويحضون باحترام الحكام قبل العامة، وقد ورث عنهم البربر عبادة آلهتهم مثل بعل عمون"[3].

---

[1]- محمد علي دبوز، مرجع سابق، ص 97.

[2]- محمد الطمار، مرجع سابق، ص 41.

[3]- عثمان الكعاك، مرجع سابق، ص 43.

خامسا/ أسباب خروج الفنيقيين من الجزائر:

كانت أطماع روما في احتلال الجزائر السبب الرئيسي لخروج الفنيقيين وانهيار قرطاجنة، وذلك خلال حرب ضروس دارت رحاها عبر ثلاث مراحل ألا وهي الحروب البونية الثلاث:

1- الحرب البونية الأولى 264 – 241 ق.م:

كانت روما تحاول أن تفرض سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط وإنعاش تجارتها ولهذا السبب وجهت أسطولها إلى جزيرة صقلية التي كانت تتمتع بموقع استراتيجي هام، مما دفع (أميلكار) القائد القرطاجي إلى أن يزحف على إيطاليا ويدمر مراكزها العسكرية، كم توجه إلى صقلية، إلا أن المدد القرطاجي تأخر عنه مما اضطره إلى طلب الصلح سنة 241 ق.م مقابل شروط مجحفة من قبل الرومان، حيث اضطر أميلكار إلى دفع غرامة حربية كبيرة وإلغاء كل الشروط التي كانت تفرضها على التجارة الرومانية.

2- الحرب البونية الثانية 218 – 202 ق.م:

استمرت روما بالتوسع مما دفع أميلكار ليعاود الكرة في الهجوم على إيطاليا مرة ثانية وكان له ذلك، حيث استولى على عدة حصون ومدن بإسبانيا إلا أنه توفي في هجومه على إحدى القبائل فخلفه صهره ثم إبنه حنبعل، فحقق هذا الأخير انتصارات كبيرة في إيطاليا، حيث أنه عبر جبال الألب خلال 15 يوما وهذا ما حير المؤرخين كيف لجيش بعدته وتعداده يعبر جبلا من أصعب جبال العالم بالرغم من التضحيات التي كانت ثمنا لذلك، حيث توفي الكثير من جيشه، إلا أن حنبعل ألهب قلوب جنوده بكلمات مؤثرة كقوله:"إن أزواجكم وأبنائكم يرقبوا عودتكم منتظرين، فبأي حال تعودون لهم؟ كهاربين من عدو لم تلتحموا به بعد؟"[1].

وتسربت هذه الكلمات في نفوس الجنود الذين تقدموا غير مبالين حتى صارت روما بين أيديهم حاصروها، ومن أجل رد حنبعل عن مراده جهزت روما جيشا كبيرا سنة 205 ق.م ووجهته إلى قرطاجنة لإرغام حنبعل على الرحيل من إيطاليا وحتى تكون المعركة على أراضيه، وكان لها ذلك، مما يدل على دهاء قادتها ومكرهم في الحروب، حينها واجه الجيش الروماني بقيادة سيكيبيو في مدينة كاف التونسية حنبعل أين انهزم هذا الأخير وفرضت عليه شروط مجحفة ومذلة.

[1]- عثمان سعدي، مرجع سابق، ص 48.

بعدها غادر حنبعل قرطاج وتوجه شرقا أين يجد حضن الحضارة الفينيقية الأولى، فاستقر في بداية أمره في صور، كما حاول تأليب ملوك الشرق على روما إلا أنهم ترددوا في ذلك ومن بينهم الملك السوري أنطيو خس الكبير، وقد علم الرومان بأمره ومسعاه فتعقبوه في كل مكان حتى وجدوه وحاصروه في منزله بثينيا على بحر مرمرة.

فآثر الموت بالسم على أن يسلم نفسه طواعية أو كرها لأعدائه وكان ذلك سنة 183 ق.م.

3- الحرب البونية الثالثة 149-146 ق.م:

كان مجلس الشيوخ الروماني يدعو إلى أنه قد حان الأوان لتكون قرطاج تحت يد الرومان، وقد دارت بين الرومان و القرطاجيين حرب ضروس بدأت بمحاصر الرومان لقرطاج لمدة 3 سنوات، تخللتها عدة احتكاكات وقتال عنيف بين الجيشين، وانتهت بقتال دام سبعة أيام بلياليها على أرض قرطاج تم فيها حرق المدينة وأعلن القائد الروماني سيبيون انتصاره أخيرا.

سادسا/ موقف البربر من حرب قرطاج مع الرومان:

شارك البربر في حرب قرطاج جنبا بجنب مع القرطاجيين، وقد وصل تعدادهم 12 ألف مقاتل أفريقي عندما أراد حنبعل عبور جبل الألب، ومن أهم ملوك البربر الذين ساندوا القرطاجيين غولا والد ماسينيسا، حيث شارك هذا الأخير في حروبها بأسبانيا في حين أن سفاقس البربري ملك موريطانيا الشرقية قد استدرجته روما إليها فكان عدوا للقرطاجيين.

ولما مات غولا عوضه أخوه الذي كان طاعنا في السن ضعيفا على تسيير الأمور وسياسة الدولة (حينما كان الملك يورث لمن هو أكبر سنا). حينها مالت قرطاج إلى استرضاء سفاقس ليكون حليفا لها على الرومان فكان لها ما أرادت مما جعل ماسينيسا ينقلب (لما صار ملكا لنوميديا) على القرطاجيين لأنهم حالفوا عدوا له طامعا في التوسع على أراضيه.

وتجدر الإشارة أنه على الرغم من معاداة ماسينيسا للقرطاجيين إلا أنه لم يرد انتصار الرومان حتى لا يحل محتل مكان محتل آخر لأنه يؤمن بالمقولة التي اشتهر بها أن "افريقيا للافريقيين" وما كان حلفه مع الرومان إلا كذلك الغريق الذي لم يجد بدا سوى أن يمسك بالأفعى حتى ينجو.

الاحتلال الروماني 146 ق.م – 429 م:

اولا/ أصل الرومان:

الرومان أمة ينسبون إلى دولتهم روما، وهي مدينة مؤسسة داخل إيطاليا أسسها على ما يقال روملوس سنة 753 ق.م، كانت هذه الأمة متوحشة، أهل الجبل منها أصحاب المواشي وأهل السهول فلاحون ومن هؤلاء الفلاحين ظهرت الدولة الرومانية.

ثانيا/ نظام الحكم في روما:

مر الحكم الروماني بثلاث مراحل:

-مرحلة النظام الملكي.

-مرحلة النظام الجمهوري.

-مرحلة النظام الإمبراطوري.

1- مرحلة النظام الملكي:

"امتدت مرحلة النظام الملكي الروماني حوالي قرن ونصف، منذ قيام مدينة "روما" سنة (753 ق.م) حتى حوالي سنة (509 ق.م) ويعتقد أنه توالي على عرش روما خلال هذه المرحلة ستة ملوك... وكان الملك هو القانون ومصدره، وهو الذي ينظم العلاقات بين الناس"[1].

2- مرحلة النظام الجمهوري:

امتدت حوالي 500 سنة، من سنة (509 ق.م إلى غاية (27 ق.م) "واحتفظ النظام الجمهوري بملامح كثيرة من النظام السابق، بما في ذلك مجلس الشيوخ والمجالس الشعبية، وكان يترأس الحكومة موظفان منتخبان يسمى الواحد منهما قنصلا، وكان القنصل يخدم لمدة سنة واحدة فقط[2].

[1]- محمد سهيل طقوس، موسوعة الحضارات القديمة، ط1، دار النفائس، 2011، ص 177.

[2]- المرجع نفسه، ص 178.

3- مرحلة النظام الإمبراطوري:

كانت بدايته منذ سنة 27 ق.م، بعد سقوط الحكم الجمهوري بسبب الحرب الأهلية التي دامت 20 سنة، وقد كان الحكم فيها مقسما بين مجلس الشيوخ والامبراطور.

ثالثا/الاحتلال الروماني للجزائر:

يقول (محمد شيت) : "لقد أصبحت الدولة الرومانية أعظم دولة في العالم بعد قضائها على قرطاجنة فقد وقعت ثلاث حروب بين الرومان والقرطاجيين في المدة 264 ق.م – 146 ق.م[1]، وقد عمدت روما إلى تحقيق احتلالها للجزائر على أساس إثارت الفتن والتطاحن فيما بين الأمراء، كما فعلت مع أبناء ماسينيسا (الذي توفي سنة 148 ق.م) الثلاث*.

وكما قلنا فقد كانت تسعى دائما إلى اشعال نار الفتن بين القبائل، حتى تدق طبول الحرب في كل مكان، فلا تهدأ ولا تتوقف حتى تنال من قواها، فلا يستطيعون مواجهة عدوهم الحقيقي، وبذلك يسهل على روما احتلالهم واستغلال أراضيهم كيفما أرادت ، وتكون هذه القبائل لقمة صائغة روما كيفما شاءت بقوتها العسكرية، لأن احتلال الرومان للجزائر كان احتلالا عسكريا بحتا ينهب ثروات وخيرات هذه البلد لصالح الجنود المتواجدين على أراضي البربر من جهة، ولصالح روما في إيطاليا من جهة أخرى.

وهناك من تفطن لسياسة الرومان التي تقوم على أساس المقولة المشهورة فرق تسد، من أمثال يوغرطا، فبعد أن كان البربر متفرقين بين الأمراء،آثر قتال من كانوا سببا لهذه التفرقة وتوحيد البربر تحت راية واحدة بعد أن نفخ في صدور قومه روح الحمية للدفاع عن أراضيهم وتشييد صرح الاستقلال وقد كان

---

[1]- محمد شيت، فتح المغرب العربي من كتاب علي محمد محمد الصلابي، صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، ط1، المجلد الأول، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، 2006، ص 152.

*- أبناء ماسينيسا الثلاث هم: ماسينيسا، مصطنبعل، وغولوسة، وقد اختطفت الموت مصطنبعل وغولوسة.
فاتخذ ماسينيسا قرطة (قسنطينة) عاصمة له، وقد خلف من بعده ولدين هما: إذر بعل وهياميسل (توفي ماسيبسا سنة 118)، وكان له ابن أخ يدعى يوغرطا (وهو ابن مصطنبعل).
وقبل وفاة (ماسينيسا) كان يخشى على ولديه من يوغرطا نظرا لما رأى فيه من شجاعة وبسالة في القتال وذكاء ودهاء نادرا ما تجتمع هذه الصفات في رجل واحد، ولذلك فقد كان يرسله للقتال كما يقول المؤرخون من أجل التخلص منه ونظرا لشجاعة يوغرطا فقد كان يرجع في كل مرة سالما غانما، وإن نبوءة (ماسينيسا) من خطر يوغرطا على ولديه قد كانت صادقة، لأن يوغرطا هذا القائد البربري الشجاع أدرك أن أمره لن يتم إلا إذا توحد البربر تحت راية واحدة وأن هذا الأمر لن يتم إلا بالقضاء على أبناء عمه وكان له ذلك إذ قضى عليهما الواحد تلو الآخر، ثم وجه سيفه اتجاه الرومان.

له ذلك، حيث إلتف حوله البربر وقووا شوكته حتى ظهر وانتصر في معارك كثيرة على الرومان، حتى نال من عزيمتهم وقوتهم، فلم يجد الرومان وسيلة من أجل التغلب عليه إلا استعمال سلاح الخيانة والعمالة وذلك بتاليب صهره بكوس عليه، حينها تغلب الرومان على يوغرطا وتم القبض عليه ثم وضعوه في السجن إلى أن مات جوعا وضمأ سنة 104 ق.م.

رابعا/ النظام الإداري في الجزائر:

"كان يتولى أمر المغرب حاكم عام يدعى (برو قنصل) مركزه قرطاجنة، ينتخبه مجلس الشيوخ، أما حاكم نوميديا، وحاكم موريطانيا الشرقية وحاكم موريطانيا الغربية فالقيصر هو الذي كان ينتخبهم، وكان الحاكم يمسك بين يده زمام السلطة المدنية والعسكرية والمالية والقضائية"[1].

وقد تم تصنيف المقاطعات المحتلة إلى نوعين من المقاطعات، المقاطعات العسكرية والمقاطعات المدنية، فأما المقاطعات العسكرية وهي تلك التي تتصف بكثرة الثورات والتوترات وكان يعين عليها حاكم عسكري، وأما المقاطعات المدنية فهي التي تتسم بالسلم والأمان وكان يعين عليها حاكم مدني يتمتع بالعضوية في مجلس الشيوخ.

وقد تم تقسيم شمال إفريقيا منذ دخل الرومان إليه إلى ثلاث ولايات وهي:[2]

- **إفريقيا البروقنصلية**: وهي بلاد تونس وطرابلس وبعض أجزاء أخرى من شرقي الجزائر الحالية.

- **نوميديا**: وهي الجزائر الحالية إلى الوادي الكبير بقرطة (قسنطينة).

- **موريطانيا**: من الوادي الكبير إلى المحيط الأطلسي، وفي خلال حكم الإمبراطور كلوديوس (268-270م) قسمت موريطانيا إلى قسمين:

-**موريطانيا القيصرية**: وهي الجزائر وتونس الحاليتين تقريبا.

-**موريطانيا الطانجية**: وهي بلاد مراكش الحالية إلى المحيط الأطلسي.

وقد تم تعديل على هذا التقسيم بحلول الامبراطور دقليد يانوس (284-305 م) لتتحول الولايات الافريقية إلى ثماني ولايات وهي:

---

[1]- صالح فركوس، مرجع سابق، ص 56.

[2]- يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 59.

1. ولاية طرابلس، عاصمتها لبدة.
2. ولاية البيزاسين، وعاصمتها سوسة.
3. ولاية زغوان، وعاصمتها قرطاجنة.
4. ولاية نوميديا العسكرية وعاصمتها لامبيس.
5. ولاية نوميديا الشمالية وعاصمتها قرطة (قسنطينة).
6. ولاية موريطانيا السطيفية، وعاصمتها سطيف.
7. ولاية موريطانيا القيصرية وعاصمتها شرشال.

خامسا/ الوضع الاجتماعي والاقتصادي:

كانت نظرة الرومان إلى الأمازيغ نظرة دونية، اعتقادا منهم بأن العنصر الروماني أعظم شأنا وأرقى عرقا من غيرهم. وأن الأمازيغ عبارة عن بربر أي أنهم قوم متوحشون همج.

وكانت العلاقة التي تربطهم علاقة استغلال، استغلال المستعمر للمستعمر، وذلك بنهب الثروات والأراضي الصالحة للزراعة، وتوزيعها على المهاجرين من إيطاليا الذين بلغ عددهم حوالي ستة (06) ألاف مهاجر، بعد أن امتنعت الأراضي الإيطالية على تلبية متطلبات الرومان فوجدت روما أراضي الجزائر بديلا عنها، فزرعوا القمح والتين والزيتون واللوز والجوز والسفرجل والكروم وأنواع مختلفة من الخضر والفواكه.

وأما الأراضي التي تركت لأصحابها فقد أثقلوا كاهلهم بالضرائب، بالرغم من أن الرومان قد أصدروا حق المواطنة للنوميديين إلا أن ذلك الإجراء كان شكليا وصوريا فقد اقتصر فقط على طبقة بعينها وهي الطبقة المثقفة والغنية من النوميدين.

بينما باقي السكان الأصليين كانوا يعانون من أوضاع اجتماعية سيئة ومن ظلم لا يكاد يفارقهم، ولا يجدون من يشتكوا له أمرهم لأن القانون الروماني يرفض احتكام السكان الأصليين إليه بصفتهم غرباء.

وهذا ما أثار سخط الأمازيغ على هذا الاحتلال الذي دام حوالي أربعة قرون من سنة 42ق م إلى غاية 430م، فما أن تهدأ ثورة في منطقة ما حتى تبدأ ثورة أخرى في مكان آخر وظلت الجزائر على هذا الحال حتى خرج الرومان منها على يد الوندال (وسنعرف سبب ذلك بعد حين).

أما بخصوص الإنجازات التي قام بها الرومان من أجل تجسيد استغلالها ميدانيا، فقد شقت عدة طرقات تربط بين مختلف مقاطاعتها من أهمها:" يمكننا ذكر الطريق الرابط بين تبسة وتيمقاد، وبين تبسة وعنابة، وبين سطيف وسور الغزلان، وبين قرطاج وتبسة ولمباز"[1].

كما أنشؤوا الموانئ التي تعتبر همزة وصل بين الجزائر وروما من أهمها ميناء عنابة، سكيكدة، القالة، جيجل، بجاية، ودلس ومدينة الجزائر.

إلى جانب ذلك فقد اهتم الرومان بالري والصناعة في الجزائر ولذلك فقد أنشئوا السدود والآبار والصهاريج " فكانت مثلا صهاريج مدينة قسنطينة تسع 30000 متر مكعب، وعنابة تسع 12000 متر مكعب، كما طوروا قنوات نقل المياه والخزانات وقنوات التوزيع، وكانت تؤدي وظائف مزدوجة حيث تمول الأرياف والمدن، وأنشئوا مصانع لعصر الزيتون ونسج الملابس ودبغ الجلود وصنع الأثاث، وصهر الحديد وكانت كلها موجودة في المدن الكبرى"[2]

سادسا/ الثقافة:

1- اللغة والفكر:

إن نفور الأمازيغ عن الرومان نتيجة غطرستهم وهيمنتهم على أراضيهم، جعلهم يبتعدون عن تعلم اللغة اللاتينية، وقد اقتصر استعمال هذه اللغة على الطبقة المثقفة وباقي سكان المدن المجبورون على استعمالها حتى يتواصلوا مع الرومان فحسب، وقد ظل باقي السكان الأصليين يتكلمون لغتهم الأمازيغية أو البونيقية، هذه الأخيرة التي ورثوها عن الفينيقيين، وخير الدليل على ذلك فقد كان أغوسطيس يستنجد بالمترجمين حتى يتمكن من نشر تعاليم مذهبه المسيحي.

ولما كان يسألهم عن أصلهم كانوا يجيبون بأنهم كنعانيين نسبة للفينيقيين تمجيدا لآثارهم السابقة ورفضا من جهة أخرى للانصهار في الثقافة الرومانية.

أما من حيث الفكر والأدب ومختلف العلوم، فقد نبغ العديد من الأدباء والمفكرين من **أهمهم**:

---

[1] عمار عمور، الجزائر بوابة التاريخ، مرجع سابق، ص 42.

[2] المرجع نفسه، ص 43.

ا- أبوليوس المادوري (125-180م)

أبوليوس المادوري الأديب والفيلسوف أبن بلدة (مداوروش) بولاية سوق أهراس، من أصول بربرية، وكانت عائلته ثرية، ورث عن أبيه أموال طائلة، صرفها على رحلاته طلبا للعلم وهو الذي:" تربع – في وقته- على عرش الآداب والفلسفة وكتب مجموعة من المؤلفات: في شتى العلوم والفنون، ولكنها باللغة اللاتينية، منها: مجموعة أشعار ضمها كتاب الأزاهير وقصة الحمار الذهبي التي شاع ذكرها"[1].

وقد أتقن اللغات الثلاث البونيقية واليونانية، واللاتينية وفضل الكتابة باللغة اللاتينية لأن كتاباته كانت موجهة للطبقة المثقفة.

وكان مناهضا للاحتلال الروماني وجسد ذلك بكتاباته المختلفة من أهمها قصته الشهيرة والتي تعد أول عمل أدبي في التاريخ بعنوان " الحمار الذهبي"، يوجزها لنا (عثمان سعدي) في بعض سطور كالتالي:" أن إنسانا اسمه لوسيوس يتحول إلى حمار، ولا يتمكن من العودة إلى أصله الإنساني إلا إذا أكل الورد، وبعد اثني عشر فصلا شعريا من هذه القصة قضاها لوسيوس منتقلا من لص إلى لص من بستاني إلى جندي إلى حلواني، إلى آخره من عناصر المدنية الرومانية بنوميديا، تغيثه أخيرا إيزيس إلهة قدماء المصريين، وتعيده إلى هيئته البشرية، كل هذه الأحداث عرضت بفن قصصي حاذق بليغ، وبأناقة عجيبة في الأسلوب، وبلغة شعرية خلابة، تجاوزت بانسجام العناصر الموغلة في القدم"[2].

ورغم بساطة هذه القصة إلا أنها تحمي في طياتها دلالات عميقة ورمزية، تعكس واقع السكان الأصليين وعلاقتهم بالمحتل، نترك المجال مرة أخرى لـــ(عثمان السعدي) يسرد لنا الى ما يرمز الحمار الذهبي إلى المؤلف نفسه مبدع هذه الشخصية الممسوخة؟ يرمز إليه كإنسان مغربي فرض عليه الاستعمار أن ينسلخ من جلده الشرقي ثقافيا (هيئته البشرية)، ويتقمص شخصية حيوان (ثقافة المستعمر)، وهل ترمز إيزيس إلى أن الثقافة الشرقية التي حاول ويحاول الرومان منع الإنسان المغربي من ممارستها، بعد تدميرهم لقرطاج، هي القادرة وحدها على إعادتها إلى هيئته البشرية السوية؟ إنها احتمالات ممكنة بالنسبة لكاتب أحس بمشرقيته في محيط معاد للشرق، فلجأ إلى الرمز والتلميح تجنبا لاضطهاد المستعمر"[3].

---

[1] بوزياني الدارجي، مرجع سابق، ص 39.

[2] عثمان سعدي، مرجع سابق، ص 124.

[3] بوزياني الدارجي، مرجع سابق، ص 39.

وقد نال أبوليوس من قبل الرومان مضايقات عديدة أودت إلى محاكمته مراة عديدة لم تنتهي بسجنه لأنه كان مدافعا بليغا عن نفسه.

وقد ساعد في تكوينه الشخصي البيئة التي عاش فيها حيث كانت مدينة مداوروش مدينة جامعية استمر نشاطها الثقافي لمدة قرنين على الأقل، فضلا عن ترحاله في ربوع وطنه التي صقلت مواهبه وزادته إشراقا في مجال العلم والمعرفة، وكان ذلك كله سببا في محبة أهل مداوروش له أكثر من أي كاتب آخر، ودليل ذلك أنهم صنعوا له تمثال نصفي أهدوه له وكتبوا عليه إلى ابن مداوروش البار، أبوليوس، وهذا ما عثر عليه في حفريات مداوروش.

ب- يوبا الثـــــاني:

ولد سنة (50 ق.م) توفي ابوه يوبا الأول وهو ابن الرابعة، فأخذه (يوليوس قيصر) وتبناه، وبعد وفاته أخذ من بعده " أغسطس قيصر" و سلمه لأخته (أكطافيا) فكان قرة عينها، وتعلم بين أحضانها حب الرومان وشب على طباعهم وعاداتهم وقيمهم واتخذ من اتجاهاتهم غاية في حياته وتلقى مختلف العلوم والفنون في معاهد روما وتتلمذ على أساتذة رومانيين، فضلع في اللغتين اليونانيتية واللاتينية" وفتن خاصة بحضارة اليونان وشغف بأدبهم وفلسفتهم وفنونهم، فأصبح بعد حين من أكبر العلماء والأدباء، وأثنى عليه معاصريه والأجيال التي تلته لغزارة علمه وتفوقه في الأدب، فسكان أثينة أقاموا له تمثالا بقرب مكتبه اعترافا بفضله ونبوغه، ويرى فيه " بلوتارك" أحسن مؤرخ أتت به الأيام، وقال في موضوع آخر:" فهو عندنا من أكثر المؤرخين اليونانيين علما بالتاريخ"، ووصفه آخرون بتضلعه في العلوم المختلفة وبحياة قضاها في البحوث الأدبية"[1].

وقد ألف عدة كتب معظمها أتلفت من أهمها " ليبيكا" أي ليبيا ويعتقد (محمد الطمار) أنه قاد جافيه" بمعلومات مهمة جديدة حول بلاده، ويتألف من أجزاء في الجغرافيا وفي الطبيعيات وفي الوثنية، فأكبر الظن أن ما وصل إلينا من حديثه عن النيل وجزر خالدات والحيوانات التي تكثر في موريتانيا والنباتات مثل الليمون مصدره ذلك الكتاب"[2].

---

[1] محمد الطمار، مرجع سابق، ص 56

[2] المرجع نفسه، ص 57

وله مؤلف آخر تحت عناوين التاريخ الروماني أو الفن المعماري الروماني، وكتاب عن الجزيرة العربية.

كما أنه كان شغوفا بالفن والمسرح فألف فيه كتابا تناول فيه الفن والمسرح، تناول فيه الفن الدراماتيكي وشيد له مسرحا.

ولأنه تشرب من الثقافة الرومانية وفتن بالثقافة اليونانية فقد كان بعيدا عن الوضع المرير الذي كان يعيشه قومه تحت ظل الاستعمار.

ج- أوغسطين:

ولد في 13 نوفمبر من سنة 354 م من أم بربرية مسيحية متدينة اسمها (مونيكا) وأب وثني لم يتب إلى الديانة المسيحية إلا في أيامه الأخيرة، وقد كان أبوه ذو أصول بربرية تجنس بالجنسية الرومانية لأنه كان كاتبا في المجلس المدينة.

يعتبر أوغسطين أكبر مفكر لا هوتي في التاريخ القديم لا زالت أفكاره وآراؤه يؤخذ بها في علم اللاهوت الغربي، وتكريما له فإن الكاثوليكيون في يومنا هذا يحتفلون في 28 أوت بذكرى وفاته.

تلقى تعليمه في مداوروش ولاية سوق أهراس، ثم انتقل إلى قرطاجة فوقع في براثن الرذيلة كما اعترف هو، وعاشر امرأة لعدة سنوات أنجب منها ابنا غير شرعي لم يتخلص من تلك المرأة إلا بإلحاح من أمه المتدينة، ثم سافر إلى إيطاليا واشتغل مهنة التعليم في البلاغة في كل من روما وميلانو وهناك تعرف على أسقف هذه الأخيرة القديس أومبرواز سنة 386 فخرج عن المذهب المانوي "والمانوية تقول: إن الإنسان مكون من المادة فلا يمكنه أن يتحرر من تأثيرها إلا بالمعرفة"[1] بعد ثماني سنوات دخل في المسيحية وتاب عن ملذات الحياة، وابتعد عن الشهوات واتخذ من التدين والتقشف منهج حياة، فعاد إلى عنابة سنة 388 حيث أقام فيها ديرا للتعبد وأخذ يتقلد المناصب الدينية حتى صار أسقف عنابة سنة 395م ثم أبا للكنيسة اللاتينية.

من أهم الشخصيات التي تأثر بها شيشرون وأفلاطون كما تأثر بالأفلوطنية المحدثة.

---

[1] محمد الطمار، مرجع سابق، ص65

من أهم مؤلفاته " الاعترافات" وهو يعد أول كتاب تاريخيا في الأوطبيوغرافيا أي فن السيرة الذاتية، حيث عرض فيه قصة حياته بمتنقضاتها أين عرف حياة الملذات والشهوات ثم أشرقت روحه بمعرفة الله، فصالح نفسه وعاش متعبدا لربه.

وكذلك ألف كتاب مدينة الله، الذي استجمع بعد وفاته، يحتوي في مضمونه على أفضلية الآخرة على الدنيا ومحاولة تأويل الإنجيل حسب أرائه الفلسفية وتجاربه الذاتية.

إلى جانب ذلك فإن من أهم مؤلفاته " التالوث المقدس" هو أيضا استجمع بعد وفاته، كان محوره الرئيسي المعتقد المسيحي الذي يتمثل في التالوث المقدس وكيف أن (الله، عيسى، الروح القدس) هاته الآلهة الثلاث تتصهر في طبيعة واحدة (الحلولية) غير منقسمة (وحدة الوجود).

وقد حاول طيلة حياته الدفاع عن معتقداته ضد الأريوسية واليهودية والدوناتية وإضحادها بالحجج والأدلة والبرهان.

توفي وهو يدافع في أواخر أيامه عن وطنه ضد الوندال سنة 29 أوت 430 م.

2- الديـــــن:

كان الرومان وثنيين، يعبدون آلهة متعددة منها آلهة عظمى عامة، وآلهة صغرى خاصة بالأسر، فعبدوا القوى الطبيعية والموتى من أسلافهم، ولم تكن لهم تماثيل يتبتلون أو يركعون لها، إلا أن احتكاكهم باليونانيين وتأثرهم بدياناتهم الوثنية أيضا، جعلهم يتخذون لأربابهم تماثيل في شكل بشر.

أما علاقتهم بالديانة المسيحية، فقد كانت في البداية، علاقة صراع ، حيث أن الرومان اضطهدوا المسيحيين في كل مكان وقتلوهم وصلبوهم وأحرقوهم ونجد أحمد شلبي يؤكد هذا الكلام فيقول:" سجل القرن الثالث صورا من أبشع أنواع تعذيب المسيحيين، وذلك في عهد الإمبراطور دقليديانوس (284- 305) فقد أمر بهدم الكنائس المسيحية، وإعدام كتبها المقدسة وآثار أبائها، وقرر اعتبار المسيحيين مدنسين تسقط حقوقهم المدنية، وأمر بإلقاء القبض عن الكهان وسائر رجال الدين وتجريعهم العذاب ألوانا، ونفذت هذه التعليمات في جميع المناطق، فامتلأت السجون بالمسيحيين واستشهد الكثيرون بعد أن مزقت أجسادهم بالسياط والمخالب الحديدية، أو أحرقت بالنار، وقد سمي عصره عصر الشهداء"[1].

[1] أحمد شلبي، مقارنة الأديان، ج2، منقول عن كتاب (عثمان سعدي)، مرجع سابق، ص 129.

ولم يكن الأمازيغيين ببعيد عن هذا الوضع منذ أن دخلت المسيحية إلى المغرب الكبير، حيث أنهم هم كذلك اضطهدوا وقتلوا بسبب دينهم الذي اعتنقوه وبهذا الصدد يقول (عثمان سعدي):" يبدو أن المسيحية دخلت المغرب عن طريق مصر والمشرق منذ القرن الأول، وما يسجله المؤرخون أنها دخلت المغرب في القرن الثاني الميلادي، وارتبط دخولها باضطهاد المسيحيين من الأباطرة الرومان الذين كانوا يعتبرون أنفسهم آلهة يعبدون، وبلغ أوج هذا الاضطهاد بالمغرب بين 295 و 299 م في العهد الإمبراطور دقلد يانوس Deschetion ، حيث سقط المئات من النوميديين والموريطانين أي المغاربة شهداء، في أثناء محاكم التفتيش التي نصبها الإمبراطور المذكور"[1].

ولا زال الوضع على حاله حتى أتى قسطنطين إمبراطورا على روما فأراد أن يجري صلحا بين الوثنية الرومانية وبين الدين المسيحي، وما فعله أنه مزج دين التوحيد الذي جاء به عيسى عليه السلام وبين الديانة الوثنية التي كانت معروضة لدى الرومانيين ولأول مرة في التاريخ أعلن أن الله هو ثالث ثلاث.

يقول دابر الأمريكي في كتابه " الدين والعلم":" ودخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة، مناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ولم يخلصوا له يوما من الأيام...وكذلك كان قسطنطين ... فقد قضى عمره في الظلم والجور. ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا في آخر عمره (سنة 337 م) "[2].

ومنذ أن أصدر قسطنطين مراسيم التسامح سنة 307 م الذي تم بموجبه تعيين كوسيليوس على رأس أسقفيه قرطاج من أجل أن يشرف على المسيحية في المغرب الكبير، حينها ثار عليه الأساقفه النوميديون، الذين بلغ تعدادهم حوالي 70 أسقفا يترأسهم دونا الأمازيغي (ولد في مدينة تبسة وقد توفي في سجون الرومان بإسبانية سنة 355 بسبب مناهضته للاحتلال الروماني) رافضين تزييف وتحريف المسيحية عن أصلها الأول، ومن تم تأسيس ما سمي فيما بعد بالمذهب الدوناتي، حيث أن هذا المذهب يختلف من حيث المعتقد عن الكاثولوليكية، كونه يعتقد بأن عيسى عليه السلام ذو طبيعة واحدة أي طبيعة بشرية وهو أقرب إلى دين التوحيد، على عكس الكاثوليكيين الذين يعتقدون أن للمسيح طبيعتين هما الإله والإنسان.

---

[1] دابر، الدين والعلم، من كتاب محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، ط8، 1993م، ص 10.

[2] دابر، الدين والعلم، من كتاب محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، ط8، مصر 1993، ص 10.

كما أن المذهب الدوناتي يختلف لغويا وثقافيا في تأدية الصلاة حيث نجدهم يصلون بالفينيقية بينما الكاثوليكيين يصلون باللاتينية.

وقد لقى الدوناتيين مطاردة واضطهاد من قبل الرومان، وهذا ما ألب الأهالي عليهم، فقاموا بثورات عديدة من أهمها الثورة التي أطلق عليها الرومان بثورة الدائريين cioncellions وكانت تهدف إلى جعل الفلاحين يثورون على الإقطاعيين من الرومان لتعود الأرض إلى الفلاحين.

وقد وجدوا في المذهب الدوناتي دعم ديني لحركتهم الثورية، وكان ذالك بداية من سنة 340، ولا زال الوضع على حاله حتى تحولت الدوناتية إلى مذهب شعبي جماهيري، اضطر حياله الإمبراطور جوليان F.C Julisnus ابن أخت الإمبراطور قسطنطين إصدار مرسوم سنة 362 بإعادة الاعتبار للمذهب الدوناتي فأعيدت كنائسه.